قلعة دمشق

دراسة أولية

بقلم : عدنان البني

رئيس الحفريات والدراسات الفنية
في مديرية الآثار العامة

مقدمة

لم تدرس قلعة دمشق دراسة أثرية إلا منذ ربع قرن ، إذ أن الدراسات التي قام بها فان برشم Van Berchem وسوبرنهايم Sabernheim حوالي مطلع القرن الحالي لم تستهدف سوى الكتابات الموجودة فيها .

ومنذ عام ١٩٢٤ قام الاستاذان وتزنجر Watzinger وولزنجر Wulzinger بدراسات ممتازة عن القلعة أكملها الاستاذ جان سوفاجيه Jean Sauvaget بدراسة مفصّلة من الناحية العمرانية نشرها في مجلة سيريا Syria عام ١٩٣٠ . ومن ثم قامت مديرية الآثار العامة في عهد الاستقلال بدراسات هندسية وترميمات هامة فيها — ولكن هذه الدراسات جميعها استهدفت الناحية الهندسية أما الناحية التاريخية للقلعة وأحداثها فانها ما تزال بحاجة لدراسة علميّة مفصّلة بالرجوع خاصة إلى المراجع العربية في الفترة الايوبية التي تم فيها بناء القلعة ، وهذه المراجع على قلتها ليست سهلة المأخذ .

والبحث الثاني هو بمثابة دراسة أولية أو خطوط كبرى لتاريخ قلعة دمشق مستقاة من المصادر القليلة التي استطعت الوصول إليها وأنا بين يدي بحثي .

قلعة دمشق

في الزاوية الشمالية الغربية لسور دمشق القديم تقع القلعة الأيوبية التي تمثل منعة المدينة الباسلة ، وهي نموذج ممتاز لفن الريازة العسكرية الأيوبية كما أنها القلعة الوحيدة تقريباً في سوريا

التي بنيت على مستوى أرض المدينة ، ومن أحسن القلاع الايوبية الكبرى التي ظلت في حالة عمرانية جيدة على الأرض السورية ، رغم مرور سبعة قرون ونصف تماماً على بنائها بشكلها الحالي بينما لم يبق في قلعة حلب من ذلك العهد سوى الباب والمسجد ، إذ بدأ الملك العادل سلطان مصر ، أخو صلاح الدين الايوبي بتشييدها منذ مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) مبيداً بناء قلعة تعود للعهد السلجوقي استخدمها الاتابكة ثم عني بها بعدهم صلاح الدين الايوبي نفسه ، ولعل القلعة السلجوقية بدورها قامت مكان تحصينات عربية تعود للعهد الاموي . ولا يمكن أن نذهب لأبعد من ذلك فنفترض كما يقول بعضهم ، وجود معسكر روماني في المكان نفسه ، إذ أن كثيراً من المؤرخين الأثريين الذين يعتد برأيهم لا يرون ذلك ، وفي المصور الذي أنشأه السيد سوفاجيه لوضع دمشق في العصر الروماني ، واستقاه من أوثق المصادر التاريخية لم يظهر في الزاوية الشمالية الغربية من السور حيث تقوم القلعة الحالية أي أثر لحصن أو معسكر روماني ، كما أن المصادر العربية وأخبار الفتوح لم تذكر في حصار دمشق سوى أبواب المدينة وأسوارها .

القلعة السابقة للعهد الأيوبي

في عام (٤٦٠ هـ ــ ١٠٧٦ م) انتزع الأمير آتسيز دمشق من سلطة الفاطميين في مصر ووضعها تحت حكم السلاجقة الذين أخذوا يحكمونها إما مباشرة أو عن طريق آتابكتهم ، وأعظم هؤلاء الآتابكة نور الدين زنكي (الشهيد) .

وقد انصب اهتمام هؤلاء الآتابكة إلى نواح ثقافية وعمرانية متعددة شواهدها كثيرة في دمشق ، كما عنوا بالتحصينات العسكرية لوقاية المدينة خلال الحروب الصليبية ، فقد هددها الفرنجة مرتين عام (١١٢٩ م) وعام (١١٤٨) م . ومن أروع الدلائل على هذه العناية بناء القلعة من قبل الأمير آتسيز نفسه في الزاوية الشمالية الغربية من سور دمشق ، كما أسلفنا . وظل الاتابكة من بعده يعنون بها دون انقطاع ، ففي أخبار نور الدين زنكي (١١٥٤ م — ٥٤٩ هـ .) أنه بنى في القلعة داراً للمسرة وبنى في غربها داراً للعدل .

في عهد صلاح الدين

وعندما أسس صلاح الدين الأيوبي الدولة الأيوبية ، ودخل دمشق سلماً (سنة ٥٧٠ هـ . — ١١٧٤ م) نزل في دار أبية المعروفة آنئذ بدار العقيقي ، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح بن نور الدين زنكي خادم اسمه ريحان ، فراسله صلاح الدين واستماله فسلم

اليه القلعة ، فجعل عرشه فيها وأصبحت بمثابة مقر لأركان حرب الأعمال العسكرية المظفرة التي قام بها .

وكان لصلاح الدين في القلعة برج خاص يسهر فيه أحياناً ، ويستقرئ من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزء أو الجزئين من القرآن وهو يسمع ، كما كان هناك قصر له ولأهله ، ودار في بستان وإيوان شمالي . وكان للقلعة جسر عبره السلطان صلاح الدين آخر مرة قبل وفاته (٥٨٩ هـ . — ١١٩٣ م) . وكان مرضه في الدار القائمة في البستان ، ولما توفي فيها غشيت القلعة وحشة عظيمة ، وصلي عليه في مسجدها وأعيد إلى الدار التي في البستان وكان متمرضاً بها ، ودفن في الصفة الغربية منها ، وجلس ابنه الملك الأفضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص والمعممين ، ثم بنى له تربة قرب الجامع الأموي وكانت داراً لرجل صالح ونقل إليها من القلعة بعد ثلاث سنوات ، ومشى ابنه الأفضل بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة الشرقي ماراً بدار الحديث النورية إلى باب البريد .

ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين ما انفك يعنى بالقلعة وتحصينها وقضى كل أيامه بدمشق فيها ، فاذا كانت دمشق في عهده المركز الرئيسي للتقاليد الثقافية والدينيه والعسكرية والسياسية في العالم الاسلامي ، فان القلعة كانت هي المركز الفعلي لكل هذا النشاط الواسع .

بناء القلعة الحالية على يد الملك العادل

ولما آلت السلطة في الديار المصرية والسورية للملك العادل أخي صلاح الدين قام يعيد بناء القلعة من جديد ، ففي أخبار عام (٦٠٤ هـ . — ١٢٠٦ م .) أن الملك العادل اهتم بعمارة قلعة دمشق وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها .

كانت غاية الملك العادل من عمله جعل القلعة تنسجم مع تطور الفن العسكري ومتطلباته المحدثة آنئذ ، وقد دام عمله ١٢ عاماً وسار على خطته هذه أربعة سلاطين متعاقبين من خلفائه .

تجاوز عمل الملك العادل في القلعة حدودها القديمة فتقدمت الأسوار من جميع الجهات وأصبحت تشكل مستطيلاً أبعاده (٢٢٠ × ١٦٠ م) ودعمت مداخلها وبنى في قسمها الغربي قصراً اتخذ مقراً لحكام دمشق حتى غزو المغول عام (٦٥٨ هـ . — ١٢٦٠ م) وأصبحت بمثابة حي ملكي ، تجمعت فيه حول السلطان أو الحاكم كل مصالح الدولة ، فصار فيها إلى جانب القصر وبيوت الأعوان ، قاعة العرش (الايوان ؟) ومراكز الادارة المدنية والعسكرية ، يضاف إلى ذلك برج لطيور البريد ودار لصك النقود ومصنع للسلاح وسجن وسوق وحمام وعدة مساجد منها المسجد الذي يصلي فيه السلطان ولا يصلي بغيره إلا في العيدين حيث يصلي

في الجامع الأموي. وهكذا أصبحت القلعة بعد عمارة العادل مدينة ملكية ادارية وعسكرية تكفي نفسها بنفسها.

وفي هذه القلعة توفي الملك المعظم ابن العادل عام (٦٢٤ هـ) وكذلك توفي فيها في عام (٦٣٥ هـ) الملك الكامل ابنه الثاني.

خراب القلعة على يد التتر (في عهد هولاكو)

وفي أخبار دمشق عام (٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م) أن التتر بعد سقوط بغداد، ملكوا دمشق بالأمان وعصت عليهم القلعة فحاصروها وجرى على أهل دمشق بسبب عصيانها شدة عظيمة وضايقها التتر وأقاموا عليها المجانيق ثم تسلموها فنهبوا جميع ما فيها وجدّوا في خراب أسوارها واحراق قصرها واعدام كل ما بها من الزردخانات واتلاف آلاتها وبعد مدة أخرج التتر نقيب قلعة دمشق وواليها وضربوا عنقيهما في داريا.

القلعة في عهد المماليك

ثم هزم التتر شر هزيمة في معركة (عين جالوت) على يد الملك المظفر قطز وقائده بيبرس البندقداري الذي اصبح في العام نفسه (أي ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م) سلطاناً من مصر وسورية باسم الملك الظاهر بيبرس. وكان في دمشق نائباً للسلطنة الأمير علم الدين سنجر الحلبي وقد سمى نفسه بالملك المجاهد وشرع في عمارة القلعة بعد الخراب الذى حصل فيها على يد التتر وجمع لها كبراء الدولة والصناع وعمل الناس جميعاً فيها بما فيهم النساء وكانوا بذلك فرحين مسرورين.

ثم استولى الملك الظاهر بيبرس على دمشق وقضى على مقاومة الأمير علم الدين في ظاهر المدينة فالتجأ هذا الى القلعة ليلاً ثم هرب منها الى جهة بعلبك، فاحتلها الملك الظاهر وأتم اصلاحها خوفاً من عودة هجوم التتر عليها.

وفي عام (٦٧٦ هـ — ١٢٧٧ م) توفي الملك الظاهر بيبرس فيها فكتم نائبه ومملوكه بدر الدين تتليك المعروف بالخزندار نبأ موته وصبره وترك في القلعة إلى أن انتهت تربته قرب الجامع الأموي فدفنه فيها.

ثم تتعاقب خلال عهد المماليك نتف يسيرة من أخبار القلعة والنزاع عليها ويظهر أن نائباً خاصاً كان يتولاها فقد خاف سلاطين المماليك فيما بعد من أن تصبح القلعة ملتجأ حصيناً لنوابهم الثائرين فجعلوا لها حاكماً أو نائباً خاصاً مرتبطاً رأساً بالسلطان، أما حاكم المدينة فيقيم

في دار العدل التي ذكرناها والتي أصبحت تسمى قصر الحاكم . ومن نواب قلعة دمشق الامير الكبير علم الدين الدميثري المتوفي عام ٧٣٢ هـ

ويجدر بالذكر أنه في عهد المماليك قد نشأ أمام الباب الشمالي للقلعة حي يسمى (حي تحت القلعة) وكانت تجري فيه الاستعراضات العسكرية لفرسان القلعة وحامية دمشق كما يجري بيع الخيول وشراؤها فسمى الحي من أجل ذلك (سوق الخيل) وقد تطورت هذه السوق وأصبحت سوقاً تجارية هامة في حياة المدينة .

اصلاحات القلعة في عهد المماليك .

اتضح بنتيجة دراسة كتابات القلعة أن خمسة اصلاحات جرت فيها زمن المماليك ، أولها اصلاح الملك الظاهر الذي أوردناه آنفاً ويمكن التعرف في القلعة الى أكثر من خمس كتابات من عهده ، وهناك اشارات الى إصلاحات أربعة من سلاطين المماليك بعده وهم قلاوون الذي أصلح القصر وبعض الابراج الشرقية ومحمد بن قلاوون ونوروز الحفيظي وقانصوه الغوري ، الذين قاموا باصلاح عدة مواضع من السور والأبراج .

ويجب أن نورد هنا أن قسماً من جهتي القلعة الشمالية والشرقية قد خرّب على يد تيمورلنك في ذلك العهد .

والاصلاحات التي جرت في عهد المماليك هي ترميمات ثانوية لم تغير من مظهر القلعة وطابعها الأيوبي ولا يمكن أن تعطينا فكرة واضحة عن تطور فن التحصين العسكري السوري في عهد المماليك .

في العهد العثماني

أخذت القلعة في هذا العهد تتهدم شيئاً فشيئاً نظراً لاهمالها إلا في بعض الحالات حيث كانت تجصص جزئياً وترمم أبوابها . وكان من نتيجة هذا الاهمال أن غيّب خندقها تحت الأتربة المتراكمة وأحاطت بها الأبنية الطفيلية من أكثر جنباتها .

وصف مجمل للقلعة في وضعها الحالي

تعد قلعة دمشق نموذجاً ممتازاً لفن العمارة العسكرية في العهد الأيوبي ، وأول ما يلفت الانتباه في هذا الفن الابراج الشاهقة التي تتألف من عدة طوابق ، وكل طابق عبارة عن

ردهة واسعة معقودة وكانت الطوابق السفلى تستخدم كمنابر لخزن الغلال استعداداً للحصار ، والطوابق العليا لسكن الجند . وهذه الأبراج تبنى بالحجارة القوية المدببة التي تؤلف سطوحاً خارجية ذات مناظر توحي بالقوة والصلابة وتتخللها نوافذ جميلة بارزة لرمي الحجارة والمواد المشتعلة والسوائل الحارة الغالية وفي أعلى الابراج توجد الافاريز والشراريف المدرجة ، وكذلك فان فن العمارة العسكرية هذا يعني بالأبواب المقرنصة التي نجد نموذجاً رائعاً منها في المدخل الشرقي .

إن زائر قلعة دمشق من جهتها الغربية يعترضه مدخل خارجي يعود للعهد العثماني غالباً ، وهو يقع مكان (باب السر) القديم الذي كان مخصصاً بمرور الحاكم فقط — بصورة سرية غالباً - وكان المار من هذا الباب يعبر على جسر خشبي يلقى على الخندق وروى أن النائب الذي يتسلم المدينة كان يصلي ركعتين أمام هذا الباب .

بعد اجتياز هذا المدخل الغربي يجد الزائر الى يمينه ، في الجنوب الغربي بقايا القصر الملكي الذي كانت فيه شقق السلطان وعائلته ، وهذه البقايا عبارة عن بناء في قسمه السفلي فجوات بشكل قوس مكسور وحجرات عليها قباب ما زالت بقايا الجص الملون واضحة عليها ، أما الطابق العلوي في القصر فقد اختفى وقد كانت أمام القصر بعض (الفيسفاء) لعلها تزين ردهات الاستقبال في القصر الذي اندثرت اكثر أقسامه .

واذا ما تقدمنا نحو الشرق نجد برجين جميلين يعود بناؤهما لعهد الملك العادل (السابع الهجري — الثالث عشر ميلادي) ويتألف هذان البرجان من ثلاثة طوابق معقودة في كل منها خمس كوات للرمى ، وسطح البرجين الخارجي محاط من اعلاه بشراريف وفوقها كوات مستطيلة مسننة . وكل من البرجين يشكل مستطيلا ابعاده (١٣×٢٦ م) وارتفاعه الى اسفل الخندق ٢٥ م . وقد كان الترتيب نفسه موجوداً في ابراج القلعة جميعها (وعددها ١٢) وكذلك فيما يتعلق بسماكة الجدران وأحجارها المدببة الجميلة .

أما المدخل الشمالي للقلعة (باب الحديد) فيتألف من بابين ، الباب الخارجي (أعيد بناؤه في القرن الخامس عشر) والباب الداخلي ، وبينهما ممر معقود ، وكانت هناك قبة صغيرة تفتح على الباحة بقوس مثلث نصفه اليوم مغيب في الارض ، وهناك ردهة طويلة فوقها قبة (وهي تستخدم حالياً كسجن) كانت تربط مباشرة المدخل الشمالي بالمدخل الشرقي وتسمح باجتياز القلعة من جانب الى آخر .

وفي آخر الباحة نرى ردهة كبرى يؤدي اليها المدخل الشرقي وهي عبارة عن قاعة مربعة (٢٠ × ٢٠ م) تضيئها قبة تدعمها أربعة أعمدة كورنثية ضخمة .

أما الباب الشرقي للقلعة (وهو باب السجن الحالي) فلم يعد يؤدي الى الباحة إذ بني آنئذ جدار بين البرجين الذين يقعان على جانبي المدخل وثقب فيه مدخل تعلوه كوة مستطيلة لرمي الحجارة والسوائل المشتعلة فوق المهاجمين . أما الباب الاصلي المبني عام (١٢١٣ م) فهو من أجمل الأبواب المقرنصة التي توجد في سورية والراجح أنه أنشيء على يد مهندس معمار من حلب لازدهار هذا الفن في حلب في ذلك الزمان . وقد نقشت على جنبات هـذا الباب في القرن الخامس عشر الميلادي قرارت تتعلق بتنظيم الجيش وإدارة القلعة . ويؤدي هذا الباب الى ممر أقل تحصيناً من ممر باب الحـديـد لانه أقل تعرضاً للخطر باعتباره يؤدى الى المدينة ونجد في الممر المذكور مسجداً صغيراً من مساجـــد القلعة قبابه مغطاة بزخارف جصية جميلة مشابهة لتزيينات القصر الملـكي التي ذكرناها آنفاً .

والبرج القائم في الزاوية الشمالية الشرقية كان بمثابة برج متقدم للدفاع ونرى على واجهته الشرقية كتابة من العهد الايوبي (الثالث عشر الميلادي) وقد أحدثت في هـــذا البرج في القرن السادس عشر الميلادي كوة مستطيلة لرمي السهام والحجارة لإعاقة المهاجـــين قبل الوصول الى الأبراج الأخرى .

هذا وقد أجريت على القلعة من جديد في الآونة الأخيرة تعديلات كثيرة مما تنشأ عنه ضرورة إعادة النظر في وضعها من الناحية الهندسية والعمرانية في المستقبل القريب .

مستقبل القلعة : أما فيما يتعلق بمستقبل القلعة فقد جاء في تقرير لجنة الأونسكو عام ١٩٥٣ المؤلفـــة من الاستاذ كولار والدكتور سليم عادل عبد الحق مدير الآثار العـام والاستاذ ديللون في الصفحة ٩ ما يلي : « إننا نرى في تنظيم القلعة أهمية كبرى يمكن أن تكتسبها نواه المدينة القديمة من الناحيتين البديعية والعملية ، ويلاحظ أن جمال هذه العمارة ظاهر هنا بجلاء ، ويكفي لذلك أن نفكر بجموع واجهاتها العظيمة وأبراجهـــا وبجمال بابهـا المقرنص في مدخلها الشرقي . ولا يخفى أنها تستخدم ثكنة وسجناً في يومنا هذا ويجب إذا أريد أن يستفاد منها أن تدخل فراغاتها الداخلية في حياة المدينة وذلك عن طريق إيجاد حديقة عامة فيها وأن يوصل بين هذه الحديقة وشوارع المدينة ... » وتسعى مديرية الآثار

العامة بالاتفاق مع الدوائر المختصة لأن تقيم بها متحفاً حربياً يضم نماذج عن جميع الاسلحة التي عرفها تاريخ بلادنا .

مراجع البحث

تاريخ أبي الفداء — المجلد الثالث — طبعه القسطنطينية ١٢٨٦ هـ

تاريخ ابن الاثير — الجزء الحادي عشر .

سيرة صلاح الدين لابن شدّاد . (وفي ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة) طبع مصر (عام ؟)

الدكتور عبد الحق — معاز — مشاهد دمشق الأثرية دمشق ١٩٥٠

كولار — عبد الحق — ديللون — تقرير الاونسكو لعام ١٩٥٣ — الطبعة العربية .

Jean, Sauvaget :

Citadelle de Damas — Syria — 1930.

Les monuments Historique de Damas. Beyrouth 1932.

Esquisse d'une histoire de la ville de Damas.

Extraits de la Revue des Etudes Islamiques.

Année 1934 — Cathier IV. Paris 1935.